الفصل الثانى عشر

مائة عام على كتاب أنشأ دولة

السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

كان وطننا العربى يحيا فى سكون ما قبل العاصفة، ركود مميت يشى بقرب الانفجار.. والاستعمار الأوروبى اقتسم أركانه، ووطد دعائمه.. فى مصر انهزم العرابيون، بسبب «الولس»، أو الخيانة، كما يقول الفلاحون، بعد أن هتف زعيمهم «أحمد عرابى» بصيحته المدَوِّية: «لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً ونحن لسنا عبيد إحساناتكم» أما فى باقى أجزاء الوطن الكبير فالحال لم يكن أفضل كثيراً: الجزائر انبسطت عليها العباءة الفرنسية، وليبيا العباءة الإيطالية والشام العباءة الفرنسية.. وهكذا دواليك!.

وهناك على بسطة الركن الآخر من العالم، كانت الدنيا تمور بمقدمات مؤامرة محبوكة، تُدَبَّرُ وقائعها على امتداد العالم أجمع.. من أوربا إلى أمريكا، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الإمبراطوريات التى لا تغرب عنها الشمس، إلى الإمبراطورية التى تحتضر، وتلفظ أنفاسها: إمبراطورية «بنى عثمان».

وفى عمق هذا الخضم يبرز يهودى شاب من «بوادست»، العاصمة الثانية للإمبراطورية النمساوية، وُلد فى مايو ١٨٦٠، وحصل على شهادة فى القانون من جامعة فيينا، و«نحوى» الأدب والمسرح، ثم عمل مراسلاً صحفياً فى باريس، أعوام ١٨٩١ ـ ١٨٩٥، لجريدة «نويه فرييه بريس Neue Freie Presse».

وحتى هذه اللحظات لم يكن «تيودور هرتزل» كثير الاعتناء بالـ «قضية اليهودية» بل كان من دعاة «الاندماج»، الذين آمنوا بأن الحل الجذرى للمشكلة اليهودية ولأزمة اليهود، التى تجسد اضطهاد العالم لها، وتعصبه فى

مواجهتهم.. إنما يكون بتفاعل اليهود فى محيطهم.. وذوبانهم فيه، وتخليهم عن انعزاليتهم التى تخيف الآخرين وتدفعهم إلى الريبة فى أمرهم.

كانت المجموعات اليهودية - فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر - قد تغولت، وسيطرت على مواقع شديدة الحساسية، فى مجالات الاقتصاد والفكر والعلوم، الأمر الذى استفز مخاوف عديدة فى أوربا، ودفع إلى استنفار تراث الكراهية الكامن مجدداً فى مواجهة اليهود، والمعروف باسم «اللاسامية»، وانتشرت المفاهيم العنصرية وأصبح لها أنصار مرموقون، بعضهم صبّ جام غضبه على اليهود واتهمهم بكل نقيصة، وارجع اليهم السبب فى كل ضائقة ألمت به أو بوطنه، وآخرون طالبوا بحجزهم - كالموبوئين - فى أحياء خاصة، أو معازل (جيتوهات)، يُمنعون فيها من الاختلاط بباقى المواطنين، وتُصادر عبرها حرياتهم، وممتلكاتهم، جزاءًا وفاقاً لما ارتكبوه، ونفر ثالث أسال دمهم، تكفيراً عما ارتكبوه من جرائم وآثام.

فى هذا المناخ الملبد بالغيوم، المنذر بالتفجرات، سافر «تيودور هرتزل» إلى باريس، وقُيضَ له أن يشهد واحدة من أهم أحداث العصر.. اتهام ضابط المدفعية، اليهودى، الفرد داريفوس، بالخيانة العظمى لـ «وطنه»، وسجنه سجناً مؤبداً فى أوائل عام ١٨٩٤، واحه داريفوس» مشاعر الجماهير الغاضبة المستاءة، التى حاصرته بصيحاتها الهادرة: «الموت للخائن.. الموت لليهود».

وكانت هذه اللحظة - فى حياة «هرتزل» - لحظة فاصلة.

ساعتها انقلب «تيودور هرتزل» من الدعوة للاندماج إلى الدعوة للانفصال.. وآمن بأن «المشكلة اليهودية» ليست مجرد مسألة إنسانية تحل باندماج اليهود فى مجتمعاتهم.. والزمن كفيل بعلاج زواياها الحادة.. وإنما هى مسألة «قومية» لا يمكن حلها إلا فى إطار التمايز اليهودى الذى يستوجب التفكير فى اتجاه آخر لحل إشكالاته، بعد أن اعتبر أن «قضية

داريفوس»: «تعبير عن رغبة الأغلبية فى فرنسا لإدانة يهودى، وكل اليهود من خلال هذا اليهودى».

وهكذا بدأت مرحلة جديدة من مراحل حياة «هرتزل».. طاف فيها بأرجاء المعمورة يدعو إلى فكرة الوطن القومى لليهود، قابل الملوك والقياصرة، والخلفاء، والرؤساء والوزراء، ورجال المال والمفكرين، وألقى الخطب ودبج المقالات ونظم اللقاءات والمؤتمرات يدعو إلى فكرته.. بعد أن صاغها فى كراس صغير. لم يلفت فى البداية انتباه أحد، ثم كان له بعد ذلك فى الواقع اليهودى المأزوم دوى الانفجار الهائل، قبل أن يُقَيَّضُ لهذه الصفحات المحدودة أن تغير مصير بلادنا، وأن تدفع أوطاننا إلى دوامة لا نهاية لها.

والحق أن «هرتزل» لم يكن مبتدع فكرة «الدولة اليهودية»، ولا صاحب براءة اختراعها.. فقد سبقه إليها «موسى هس» ـ الاشتراكى المرتد ـ الذى طرح جانباً من هذه الدعوة فى كتابه الشهير «روما والقدس»، (عام ١٨٨٦)، و«ليون بنسكر» صاحب كتاب «التحرر الذاتى»، (١٨٨٢) الذى ناقش فكرة الوطن القومى لليهود عبر صفحاته.. بل إن كلمة «الصهيونية» ذاتها، التى أصبحت علماً على الحركة السياسية المترتبة على كتاب «الدولة اليهودية».. كانت أيضاً من بنات أفكار مفكر آخر اسمه «ناثان بيرنيوم».. لكن القيمة الأساسية، التى جعلت «هرتزل» يتبوأ موقعه الريادى، هى كونه أول من جمّع هذه الأفكار المتناثرة، وجدل منها حبلاً واحداً.. قفزت به الحركة اليهودية من الضياع والتمزق إلى الوجود والتحقق، فى قرن واحد لاغير.

وفى علاقة جدلية مع تطور أفكاره ونمو شخصيته، بدأ يبرز دور «هرتزل» كزعيم سياسى دبلوماسى وخطيب، ومُنَظِّم جم النشاط، استطاع أن يُجَمّعف من حوله شتات الحركة السياسية الصهيونية، ومُزقَهَا، الموزعة على أركان المعمورة.. ومن وحى أفكاره عُقد المؤتمر الصهيونى الأول بمدينة بازل

(سويسرا) فى أغسطس ١٨٩٧، بحضور ٢٠٨ عضوا يمثلون يهود ١٦ دولة.. لبحث مستقبل الحركة الصهيونية وآفاق نشاطها، وبعد انتهاء المؤتمر أعلن «هرتزل» بحسم: «فى بازل أسست دولة يهود».. فقد كان الإعلان الأبرز الذى صدر فى بازل، هو الهيكل الذى كسته الصهيونية السياسية، بمساعدة الغرب، لحمه ودمه.. فأصبحت دولة «إسرائيل».

«الدولة اليهودية» هى مانيفستو الحركة الصهيونية التى استهدفت بناء وطن ليهود الشتات.. إنه الخطة السياسية لليهود فى إطار سعى حركتهم المنظمة إلى حل مشكلتهم.. ولو كان ذلك على حساب الآخرين، لا يهم.. إنما المهم حقاً هو أن تكون لليهود دولتهم القومية وليكن ما يكون بعد ذلك.

ينقسم الكتاب إلى سبعة أجزاء، الأول مقدمة للمؤلف، والثانى تمهيد كمدخل للكتاب، وهما موجهان للقارئ اليهودى لإقناعه بأن فكرة «الدولة اليهودية» المأمولة ليست فكرة خيالية، «يوتوبيا»، وإنما فكرة قابلة للتحقق بمقدار قدرة الإرادة اليهودية على تجميع ذاتها، ودفع الدماء فى شرايينها الجامدة، لأن كل شىء يعتمد على قوتنا.. ولكن ما قوتنا الدافعة؟ إنها بؤس اليهود.. فمن يجرؤ على إنكار وجوده؟... «إن اليهود الذين يريدون الدولة ستكون لهم، وسوف تستحقونها».. وليس هذا فحسب، بل لأن «الدولة الصهيونية ضرورية للعالم.. لذلك فسوف تقوم» لكن قيام هذه الدولة، يعتمد أولاً وأخيراً (وقد اثبتت الأحداث التالية صدق هذه النبوءة) على توفر عنصر القوة.. «إن القوة - يقول «هرتزل» - تسبق الحق. هذه هى الحقيقة الواقعة فى عالمنا المعاصر، وسوف تبقى كذلك إلى أمد بعيد».

ويشن «هرتزل» فى صفحاته التمهيدية حملة ضارية على دعاة «الاندماج»، (وقد كان فى الماضى واحداً منهم).

«إن من كان قابلاً للفناء، أو فى طريقه إليه، أو يجب أن يفنى - يقول «هرتزل» - فلندعه يفنى».. «أما القومية المتميزة لليهود.. فلا يمكن أن تفنى،

ولن تفنى، ولا ينبغى لها أن تفنى.. إنه لا يمكن تدميرها، لأن الأعداء الخارجيين يدعمونها.. قد تبلى فروع كثيرة من اليهودية، وتسقط.. أما الجذوع فإنها تبقى ثابتة».

إن حلم الدولة «الملكى»، كما يصفه «هرتزل»، «هو وحده الذى يستطيع أن ينقل أمة من بيئة، لكى تستوطن فى بيئة أخرى»، أما أهل هذه البيئة الأخرى، فليس لهم أن يبتئسوا، لأن «رحيل اليهود الآن لن يؤدى إلى اضطراب اقتصادى أو أزمات أو اضطهادات..».

وستتم عملية ترحيل اليهود إلى دولتهم الجديدة من خلال «حركة بالغة التنظيم» وبالتعاون مع «الحكومات المعنية».. إنها عملية اقتصادية مدروسة، يضمن قوة تنفيذها إنشاء هيئة عامة، سوف تسمى «جمعية اليهود»، «The Society of Jews»، وإلى جانب هذه الجمعية ستوجد شركة يهودية وهى مؤسسة إنتاجية اقتصادية، سيضمن استقرارها توفير رأس المال الكافى لها.

إن كل المحاولات السابقة لحل المسألة اليهودية كانت بلا جدوى، وإن صحب أكثرها وحسن القصد.. لماذا؟! يجيب «هرتزل».. لأنها اعتمدت - جميعها - على إذابة اليهود فى الأمم التى يوجدون بين ظهرانيها.. فى حين «أن الأمم التى يعيش فى وسطها اليهود جميعها مناهضة للسامية بشكل علنى أو مستتر».. وكلها تهتف فى نفس واحد «أيها اليهود اخرجوا».. وإذا توجب على اليهود الرحيل.. «فإلى أين؟!».. إلى أين و«العداء للسامية بين الشعوب يتعاظم يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة، وهى حَرِيةٌ بأن تتعاظم حقاً، لأن أسباب نموها مستمرة فى الوجود ولا يمكن إزالتها».

.. لقد أصبح من المستحيل أن يهرب اليهود، وكما يقول «هرتزل» من هذه «الدائرة الأبدية».. فلن يسمحوا لنا بالاندماج.. «إنهم لن يدعونا فى سلام».. «إن الكراهية التى تحيط بنا هى التى تجعلنا غرباء مرة أخرى».. وليس أمامنا من سبيل لتجاوز جدار الكراهية ومحيط الغربة إلا بتكوين «الدولة».. و«إننا نملك كل المواد الإنسانية والمادية اللازمة لهذا الغرض».

خطة تأسيس الدولة:

إن خطة «هرتزل» لتأسيس الدولة ـ كما يذكر فى صفحات كتابه ـ فى جوهرها، «بسيطة كل البساطة».. «فلنُمنح السيادة على جزء من الأرض يكفى للاحتياجات الحقيقية لأمة.. وسوف نتكفل نحن بالباقى..

وليس هذا فحسب.. بل إن «الحكومات فى جميع البلاد، التى انتُقدت بسبب العداء للسامية سوف تكون حريصة على مساعدتنا فى الحصول على السيادة التى نريدها».

وترتكز خطة «هرتزل» ـ كما بَيَّنها فى «الدولة اليهودية» ـ على ركيزتين:

١ ـ **جمعية اليهود**، التى تقوم بالاعمال التمهيدية فى مجال العلم والسياسة.

٢ ـ **الشركة اليهودية**، التى تقوم بتنفيذ الشق التطبيقى ـ العلمى ـ لإنشاء هيكل الدولة.. كما أنها سوف «تنظر فى تحقيق المصالح المالية لليهود الراحلين، وسوف تنظم الاقتصاد والتجارة فى الدولة الجديدة».

وخطة ترحيل اليهود اللازمين لوضع اليد على الأرض، وبناء أركان الدولة، ستستغرق عدة عقود من الزمن.. سوف يُرَحَّلُ أولاً الأكثر فقراً لزراعة الأرض، وفى إطار خطة سبق تصميمها: سوف ينشئون الطرق والجسور، والسكك الحديدية والتلغراف والأنهار، ويستثمرون الأنهار ويبنون المساكن ويمارسون التجارة، وسيرفع عملهم من قيمة الأرض، الأمر الذى سيُغرى يهوداً آخرين بالرحيل، وسيتدفق المتعلمون على الأرض الموعودة.. ثم.. «سوف تعترف الحكومات بالجمعية باعتبارها سلطة لإقامة الدولة».

مهمة استعمارية:

إن مهمة الشركة ـ بوضوح، وحسب تعبير «هرتزل» ـ «مهمة استعمارية خالصة»، وسر نجاحها (وهو أسلوب ظل معمولاً به على الدوام من الدولة

الصهيونية)، هو أن تضع نفسها «تحت حماية دولة عظمى»، انجلترا آنذاك ثم أمريكا بعد ذلك، و«سيكون مركزها لندن»، (الذى منح رئيس وزرائها ووزير خارجيتها«بلفور» لليهود ـ بعد عقدين ـ وعده المشهور).

أما مهمة «الجمعية اليهودية»، فهى الهيئة السياسية العامة التى يقترحها «هرتزل» لكى تقوم على سياسة شئون اليهود، ومن أجل استكمال تكوين دولتهم المتقدمة، حيث سيكون لديها مهمات علمية وسياسية «فلن نَرْحَلَ اليوم من مصر بالطريقة البدائية التى رحلنا بها فى العصورالقديمة.. إننا سوف نحصل مسبقاً على إحصاءات دقيقة لعددنا وقوتنا.. وستتكفل الجمعية بتجميع آراء اليهود المختلفة، وستقوم بترتيب بحوث الخبراء فى الوطن الجديد، وتدرس ثرواته الطبيعية وتقوم بالتخطيط الموحد للهجرة والاستيطان، والأعمال المبدئية فى التشريع والإدارة.. إلخ، وستسعى الجمعية ـ مع العالم الخارجى ـ إلى الحصول على اعترافها باعتبار الجمعية سلطة لإنشاء الدولة.

أى أن الجمعية ستكون قيادة الدولة السياسية والتشريعية فى حين تتولى الشركة واجباتها التنفيذية، لاستكمال مهمة الدولة الرئيسية: احتلال الأرض.. «وحالما تضمن الأرض، فسترسل سفينة إلى هناك، على ظهرها ممثلو كل من الجمعية والشركة والمجموعة المحلية، الذى سيدخلون فى ملكيتها على الفور: وهؤلاء الناس أمامهم ثلاث مهام لإنجازها:

١ ـ البحث العلمى الدقيق لجمع الثروات للوطن.

٢ ـ تنظيم إدارة مركزية صارمة.

٣ ـ توزيع الأرض.

لكن أين هى الأرض التى ستتولى الجمعية مهمة تحويلها إلى الدولة المنشودة؟!: «هناك منطقتان موضوعتان فى الاعتبار»، يقول «هرتزل»:

الأولى: «فلسطين». **والثانية:** «الأرجنتين».

وبرغم أن «الأرجنتين»، التى تعد من أكثر بلاد العالم خصوبة، تمتد على مساحات شاسعة، وفيها عدد قليل من السكان، ومناخها معتدل، إلا أن لُعاب الحركة الصهيونية كان يسيل على فلسطين.. إنها - يقول «هرتزل» بعاطفية مفرطة تتناقض وأسلوب الكتاب البارد الجامد - «وطننا التاريخى الذى لا تمحّى ذكراه.. إن اسم فلسطين بحد ذاته سيجتذب شعبنا بقوة ذات فعالية رائعة.. ومن هنا سوف نشكل جزءاً من استحكامات أوروبا فى مواجهة آسيا كموقع أمامى للحضارة فى مواجهة البربرية: وعلينا - كدولة طبيعية - أن نبقى على اتصال بكل أوربا التى سيكون من واجبها أن تضمن وجودنا».

لكن فلسطين - يعرف «هرتزل» - أرض يملكها شعب وليست صحراء جرداء تنتظر المدد اليهودى - بل إن «آشير جنسبرج»، الذى كان يوقع باسم «آحاد ها عام Ahad Ha - Am»، أى واحد من الشعب، كتب بعد عام واحد من مؤتمر «بازل» يحذرهم من مغبة الاعتقاد بأن «جميع العرب رجال بدائيون يعيشون فى الصحراء، وأنهم لا يرون ولا يفهمون ما يجرى حولهم.. وهذه غلطة كبيرة، لأن العرب، وخاصة سكان المدن منهم، يرون ويفهمون ما نفعله وما نبتغيه فى فلسطين.. وإذا ما تطور الأمر فى فلسطين إلى درجة زحفنا على المجال الحيوى للمواطنين الأصليين فإنهم لن يتخلوا عن مكانهم بسهولة».. «إن الدولة اليهودية الجديدة، تنشر الموت وتجلب العار على شعبنا».

لم يستمع «هرتزل» لكلمات «آحاد ها عام»، وإنما خاطب قومه متجاهلاً تحذيره.. «هناك أمر واحد يحتاج إلى شرح» - يقول هرتزل - «وأعنى به كيف يتم احتلال الأرض بالنسبة للمجموعات المحلية؟».

«فى أمريكا كانت طريقة احتلال الأرض الجديدة المفتوحة» - على نحو ما يشرح «هرتزل» - طريقة بدائية.. حيث يتجمع المستوطنون على الحدود، وفى وقت محدد سيندفعون جميعاً فى وقت واحد بعنف لاحتلال الجزء الذى

يقدرون عليه».. لكن هذه الوسيلة الساذجة لم تعد تصلح فى عصر الاستعمار والعدوان والسلاح، ومن الغباء، على حد تعبير «هرتزل» الرجوع إلى المراحل الحضارية السابقة، كما يريد الكثير من الصهاينة أن يفعلوا.. فإذا توجب علينا أن نُخلى أرضاً من «الحيوانات المفترسة»، (وهم هنا العرب، ملاكها الأصليون).. «فلن نقوم بالمهمة بنفس الطريقة التى اتبعها الأوربيون فى القرن الخامس عشر».

...«فلا يصح أن نأخذ رمحاً وحربة ونخرج أفراداً وراء الدببة، بل ينبغى أن ننظم مجموعة قوية من الصيادين، فنسوق الحيوانات لنجمعهم معاً فى مكان واحد.. ثم نقذف وسطهم بقنبلة مدمرة»... وقد كان لـ «هرتزل» ـ وحركته ـ وأنصاره ـ وحلفائه.. ما أرادوا. لقد ألقى الصهاينة بالقنبلة، على مجموعة (الحيوانات) التى أرادوا التخلص منها، فانفجرت ولا زال دويها يصم الآذان..

راحت نصيحة «آحاد ها عام» أدراج الرياح، وجاء «المتحضرون» لكى يقذفوا بقنابلهم المدمرة وسط «الحيوانات العربية المفترسة».. وبعد مائة عام فقط على وضع كتاب «الدولة اليهودية» انفتح الطريق لـ «أبناءالعم»، تماماً، مثلما تنبأ «هرتزل»، وهو يخاطب قومه:

.. «يا إخواننا اليهود: هذه هى «أرض الميعاد».. لا أسطورة هى ولا خدعة، وكل إنسان يستطيع أن يختبر حقيقتها بنفسه، لأن كل إنسان سيحمل معه قطعة من «أرض الميعاد»: بعضها فى رأسه، وبعضها فى ذراعيه، وبعضها فى ملكيته المكتسبة».

■ ■ ■

«يجب أن تكون حدودنا الشمالية تلك الجبال المواجهة لـ قبادوكيا (Cappadocia)، والجنوبية عند قناة السويس.

وسوف يكون شعارنا: «فلسطين داوود وسليمان»

«هرتزل»

اليوميات، جـ١، ص:٣٤٢

...«من نهر مصر إلى الفرات»

«هرتزل»، اليوميات

١٨٩٨/١٠/١٥

obeikan.com